الطفل الفلسطيني
بين حقه الوجودي وملابسات الواقع
(تجربة تعليمية)

باسمة صواف

تعدّ الطفولة من أهم مراحل الشخصية؛ لما لها من دور فاعل في تشكيل سماتها، فالطفل يتفاعل مع من حوله متأثراً ومؤثراً، وبهذا تتشكل ثقافة خاصة به، تعزز مفهوم الذات لديه، «فهناك علاقة واضحة بين مفهوم الذات وما نسميه بالتفاعل الاجتماعي».[1] لذا، اهتمت معظم الدراسات بالجانب المعرفي والسلوكي والنفسي للطفل، لأن الخصائص الإنسانية للإنسان قابلة للتغير والمرونة تجاه الشروط الاجتماعية والثقافية التي يكبر ضمنها ويتغير.[2]

وإذا نظرنا إلى واقع الطفل الفلسطيني، نجده يعاني من اضطراب في التوازن النفسي والاجتماعي، وهذا ما أوجد تناقضاً اجتماعياً وسيكولوجياً في حياته، ما جعله غير قادر على تحقيق تطلعاته ورغباته. وهذا يحيلنا إلى الظروف القاهرة التي تحيط به، والتي أوجدت منه طفلاً متميزاً وجودياً وذاتياً على الرغم من تجاهل العالم لحقوقه كطفل له حق التمتع بحياة هانئة، متجاوزاً بذلك ما جاء في وثيقة الإعلان عن حقوق الطفل، التي أعلن عنها في جنيف العام 1924، وجاء فيها: "يجب أن يتمتع الطفل بجميع الحقوق المقررة في هذا الإعلان. ولكل طفل، بلا استثناء، أن يتمتع بهذه الحقوق دون أي تفريق أو تمييز بسبب العرق أو اللون أو الدين أو الرأي سياسياً أو غير سياسي، أو الأصل القومي أو الاجتماعي، أو الثروة أو النسب، أو أي وضع آخر يكون له أو لأسرته".[3]

ولأن الوعي هو انعكاس للوجود، ورابط يربطه مع العالم، ومع الوجود الذي ينتجه،[4] قمت أنا وزميلتي أمل قطاوي بعمل مساق عن "حقوق الطفل"، حتى نعمق وعي الطفل بحقه الوجودي في الحياة من خلال الانتقال من الحركة إلى الكلمة إلى الكتابة، مطلقين العنان لخياله في سياق اجتماعي وثقافي جديد يتفاعل معه بكينونته مع من حوله.

وقد طبق هذا المساق على فئة عمرية مختلفة (13–16 عاماً) من الفتيان والفتيات، من بيئات ومدارس مختلفة، ضمن مساقات مكتبة بلدية البيرة الصيفية، وكانت مدة المساق تسع ساعات، وزعت على ثلاثة أيام.

اليوم الأول: (تعرية الذات)

التدريب الأول

إحماء، قامت به زميلتي أمل قطاوي، والهدف منه إدخالهم في جو التدريب، وانسجامهم نفسياً.

التدريب الثاني

لعبة الكرة، قام كل طالب وطالبة في المساق برمي الكرة مع ذكر اسمه/ها واسم الشخص الذي ألقى الكرة إليه/ها.

بعد ذلك طُرح السؤال الآتي: هل تحب اسمك؟ ولماذا؟ وإذا كنت لا تحبه، ماذا تختار اسماً لك؟

ولكسر حاجز الخجل بين الطلبة وبيننا (أنا وزميلتي أمل)، بدأت أنا التدريب قائلة: أنا لا أحب اسمي، لأن حرف الباء يأتي رقم اثنين في الترتيب الأبتثي، وكنت أشعر بالضيق عندما تسارع المعلمة وتختارني للقراءة، بينما كنت أتمنى أن يبدأ اسمي بحرف الميم أو الهاء أو الياء. أما زميلتي أمل فقالت: أنا أحب اسمي كثيراً، لأنه يوحي بالتفاؤل.

تحدث الطلبة عن أسمائهم، وصفوة القول تبين أن أغلب الطلاب يحبون

أسماءهم، إما لإعجابهم بالاسم أو لرضا كل منهم في الشخصية التي اختارت لهم الأسماء.

استراحة مدة عشر دقائق

تدريب إحماء قمت به، والهدف منه بناء مزيداً من الثقة بين الطالب وذاته، وبينه وبين من حوله.

التدريب الثالث .....
(القناع)، ويهدف إلى الكشف عن جوانب أخرى من شخصية الطلبة.

قمت بحمل مجموعة من الأقنعة الوهمية، ودرت بين الطلبة، اختار كل طالب وطالبة القناع الذي يريده.
طلبت منهم رسم الشخصية، وكتابة الأدوات التي تحبها الشخصية، ولا تستطيع الاستغناء عنها.
قام كل طالب وطالبة بالحديث عن الشخصية وأدواتها.

من أقوال الطلبة:

رناد: اخترت بنت الشوارع؛ لأني لا أحب هذه الفئة من الناس، ومن الأدوات التي تحب الاحتفاظ بها: حقيبة، وهاتف.
رزان: اخترت صلاح الدين الأيوبي؛ لأنه بطل حرر القدس، وأنا أعتز به لأنه عربي، وقام بشيء عظيم من أجلنا. ومن الأدوات التي يحب الاحتفاظ بها: الحصان، والسيف، والدرع.
رغد: أحب رجل الأعمال؛ لأنه رجل عصامي، وأحب فيه ملابسه، والأدوات التي لا يمكن الاستغناء عنها، هي: العطر، والجل، والبايب، والمرآة، والمشط.
هيثم: أحب مارتن لوزوكي من السود في أمريكا؛ لأنه مثل الشمعة التي تذوب من أجل الآخرين. الأدوات التي لا يستغني عنها هي مبادئه.
فراس: أحب جيفارا؛ لأنه رجل ثوري يحب وطنه، الأدوات التي لا يستغني عنها، هي: السلاح.
معاذ: اخترت أبا عمار؛ لأنه رجل والرجال قليل، والأدوات التي يحب الاحتفاظ بها، هي: الحطة الفلسطينية، والسلاح.
عائشة: أحمد مطر، لأن شعره وطني، والأدوات التي يحتفظ بها، هي: القلم والورقة.

ومنهم من اختار شخصية نانسي عجرم، وهيفاء وهبي، وكذلك نور ومهند.

ولكي يشكل الطلبة تصوراً أعمق للشخصية، طلبت منهم تقمص دور الشخصية في المشي في أماكن عدة مثل: الشارع، أو في منطقة جبلية وعرة.

وحتى تتعرى الذات أكثر، قامت زميلتي أمل بهذا التدريب:

طلبت من كل طالبتين وطالبين الجلوس بشكل عكسي، بحيث يتلاصق الظهر مع الظهر، بعيداً عن إيماءات الوجه، ومعتمدين على حاسة

السمع. وكل شخصية تخبر الأخرى بما تحبه وتكرهه في شخصيتها، وبعد الانتهاء من الكتابة تم تبادل الأوراق.

من كتابات الطلبة:

(أ)
- أنا دالية أحب في شخصيتي الصراحة، وطيبة القلب، وأكره في شخصيتي: الهدوء والخجل.
- أنا رناد أحب في شخصيتي: الاجتماعية، والضحك، وأكره في شخصيتي العجلة.

(ب)
- أنا أسماء أحب في شخصيتي: الهدوء، وأكره: التحيز.
- أنا رزان أحب في شخصيتي: التعاون، وأكره: الخجل.

(ج)
- أنا فراس، أحب في شخصيتي: التعاون، وأكره: التعصب.
- أنا معاذ أحب الصداقة، واحترام مشاعر الآخرين، وأكره التزمت.

(د)
- أنا أريج أحب الإخلاص والتعاون، وأكره في شخصيتي، أنني لا أنفذ ما أقوله.
- أنا رغد، أحب التعاون بين الناس، وأكره خصلة بي، وهي الحديث بسرعة.

وتم الاستماع إلى جميع الطلبة، وبهذا استطعت أنا وزميلتي أمل أن نكوّن صورة بسيطة عن الشخصيات التي نتعامل معها.

وكان لي ولزميلتي أمل نصيب في هذا التدريب، حيث قالت أمل: أنا باسمة، أحب في شخصيتي التحدي والمثابرة، وأكره الطيبة المفرطة.

وقلت: أنا أمل، أحب في شخصيتي العطاء والإخلاص، وأكره التردد.

وكان لا بدّ من تغيير اتجاه الطلبة في التوجه إلى سماع ومشاهدة ما هو مفيد، لذا كان لا بدَ من معالجة الأمر، فقمنا بتوظيف "السيكودراما" في اليوم التالي.

اليوم الثاني: (بناء الثقة)

التدريب الأول .....

إحماء، قامت زميلتي أمل بهذا النشاط، وانتهى بنحت تمثال عن المشاعر، أحب وأكره.

التدريب الثاني .....

«السيكودراما»، قلت للطلبة: كنت في مكتبة عامة، أطالع فيها بعض الكتب، وبينما أنا أبحث في أوراقي الموجودة على الطاولة وجدت ورقة مكتوب فيها:

> أنا فتاة أحب مشاهدة التلفاز كثيراً، تسحرني المسلسلات الرومانسية، خاصة المدبلجة، كما أحب مشاهدة الأغاني إل (FIRE)، وأحب تقليد المطربات في اختيار ملابسي، وطريقة كلامي، ومشيتي، وتمشيطة شعري.
> لي أخ فيلسوف زمانه، يحب القراءة كثيراً، يقرأ روايات ومقالات سياسية وأدبية، ويحب سماع الأخبار.
> عندما يراني على هذه الشاكلة، يحزن كثيراً، ويقول لي: جيل إمّعة، يركض دائماً وراء المظاهر، والطبول الفارغة.
> أرد عليه: أنا هيك مبسوطة . . . خليت الثقافة إلك.
> أنا سعيدة جداً بهذه الشخصية، لأنني أنافس المغنيات والممثلات في اللبس والسلوك.
> ولكن مع كل السعادة التي أشعر بها، أقع في دائرة من المشاكل مع أسرتي.

بعد انتهائي من القراءة، تمت مناقشة ما جاء في الورقة، حيث انقسم الطلبة إلى مؤيد ومعارض لرأي الفتاة وشقيقها.

وبعد ذلك عملنا نشاطاً صغيراً يقوم على تقمص شخصية الفتاة، مع وجود طرف مؤيد، ومعارض لها، وكذلك شخصية الأخ على شكل مجموعات.

وجاء في كتابات الطلبة:

الطرف المؤيد للفتاة: أنا فتاة مقتنعة بذاتي، وليس لأحد حق التدخل في شؤوني الخاصة، وهذه حياتي التي تخصني ولا تخص غيري، وعندما أقوم بتقليد المطربات والممثلات، أشعر بأنني أزداد جمالاً، وألفت أنظار من حولي بما أقوم به من سلوك، وما أرتديه من الملابس، فكل شخص له ذوق خاص به، فأنا لست الفتاة الأولى والأخيرة التي ترتدي هذه الملابس، وتقلد المطربات.

الطرف المؤيد للأخ المثقف: يجب على الشخص أن يكون مثقفاً وواعياً، حتى يعرف موقعه في المجتمع، ولكي يكون على علم وفهم بما يجري حوله من أحداث.

انتشرت في مجتمعنا ظاهرة التقليد الأعمى الذي تأثرنا به من الغرب، حيث أخذنا الأفكار السلبية، وتركنا ما هو إيجابي وفعال.

ويجب أن تكون الشعوب العربية شعوباً مثقفة، وبخاصة الشعب الفلسطيني، لأننا دولة محتلة، ومن أنواع الجهاد (العلم والثقافة)، لذا يجب الاهتمام بهما.

الطرف المعارض للفتاة: يجب أن تهتم المرأة بالتعليم وتنمية المجتمع، من حقها أن تهتم بمظهرها الخارجي، ولكن ليس على حساب أمور أخرى أكثر أهمية من المظهر كالثقافة، والتعليم، والأسرة، فهي تشكل مثالاً وقدوة لإخوتها الصغار ولأبنائها.

عليها أن تراعي الدين، وتقاليد المجتمع من ناحية الملابس، فالمطربات ليس لديهن حدوداً يلتزمن بها. لذا، يجب على الفتاة تقسيم وقتها بين التلفاز، وممارسة الهوايات، وتنمية الفكر والشخصية.

طرف آخر: جيل لا فائدة منه، يركض وراء الموضة، وتسريحة الشعر، ولفت أنظار الشباب والفتيات، وهذا كله بسبب التلفاز، ومشاهدة القنوات الفضائية، والجلوس طويلاً على الانترنت.

ومن اللافت للانتباه أيضاً أن الشباب أصبحوا ينافسون الفتيات في الموضة، وهذا ما أوجد جيلاً يشعر بالفراغ، ويركض وراء اللاشيء لإيجاد الشيء، ولكن دون جدوى.

ربما استطعت أنا وزميلتي أمل إيصال ما هو أصح، وإن اختلفت وجهات النظر، مع اختلاف الجنس والعمر.

التدريب الثالث .....

ولاستكمال ما كان مخططاً له، تحت عنوان (بناء الثقة)، قمت أنا وزميلتي أمل بالتدريب الآتي:

تم إسماع الطلبة موسيقى حزينة، ليعيشوا أجواء حزن، وأثناء سماعهم للموسيقى طُلب منهم ترجمة ما يشعرون به إلى رسومات على شريط ورقي طويل. وشاركت أنا وزميلتي أمل الطلبة في الرسم. وبعد ذلك، قمنا بجولة مع الطلبة لمشاهدة الرسومات والحديث عن مشاعرهم اتجاهها، وكانت في معظمها: بحر، سفينة، أشجار متسلقة، بيوت حولها أزهار، خربشات، وجوه غريبة. وما هذه الرسومات سوى انعكاس، ووسيلة يعبر الطفل من خلالها عن رغباته وطموحاته.

وهذا يحيلنا إلى قول فرويد: "الرسم يعكس وجهاً من التجربة الوجودية المعاشة للطفل: أحلامه، رغباته، مخاوفه، اهتماماته، موقعه من خلال الموضوعات التي يختارها لرسمه. وهو بذلك ينبئنا عن علاقاته العاطفية مع العالم الذي يحيط به، حركة الاقتراب أو الابتعاد، أو الخوف الذي يميز روابطه بالناس والأشياء، إنه بالنسبة للطفل وسيلة لتقديم ذاته إلى الآخرين". [5]

استراحة مدة عشر دقائق .

قراءة القصة (أحلام طفلة اسمها بيسان)، وتم اختزال القصة بما يتناسب مع الموضوع .

وهذه القصة ربما تصحح ما ذكرته الطالبة (رناد) عن بنات الشوارع اللواتي لا ذنب لهن بوجودهن في مثل هذه الظروف الاجتماعية التي فُرضت عليهن .

جاء في القصة :

«يحكى أن طفلة كان اسمها «بيسان» وعمرها تسع سنوات، كانت تعيش مع أسرتها المكونة من والد ضرير وأم مصابة بالتهاب رئوي حاد، وثلاثة أخوة صغار .
ولما كانت أحوال الأسرة بائسة جداً . . فقد قررت بيسان أن تعمل لكي تساعد أسرتها، أسوة بابن الجيران «عادل» الذي يعمل ويساعد أسرته .

خرجت بيسان من بيتها باتجاه بيت الجيران، وهناك قابلت عادل، وسألته عن طبيعة عمله، وعن إمكانية مساعدتها في إيجاد عمل . واتفقا أن يخرجا في اليوم التالي لكي تتفق بيسان مع أحد التجار الذي كان يزود عادل ورفاقه ببضاعة يبيعونها على الحاجز العسكري الإسرائيلي، حيث كانت تصطف عشرات السيارات يومياً بانتظار عبور الحاجز الفاصل بين مدينتي رام الله والقدس .
وبالفعل، خرجت بيسان مع عادل في اليوم التالي، واتفقت مع التاجر على بيع المحارم الورقية على الحاجز يومياً بعد انتهاء ساعات الدوام .

بدأت بيسان عملها اليومي بعد العودة من المدرسة، تستلم البضاعة وتعرضها على أصحاب السيارات المصطفة على الحاجز، إلى أن تغرب الشمس، فتسلم النقود وما تبقى من البضاعة للتاجر مقابل أن تحتفظ بعمولة بسيطة، هي كل ما كانت تجنيه من تجارتها .

في كل يوم، كانت بيسان تعود من العمل وتسلم والدتها النقود، وتأوي إلى فراشها وقد أنهكها التعب .
وبقيت على هذا الحال حوالي شهرين، إلى أن اكتشفت بأن ما تجنيه لم يعد كافياً، فقررت أن تترك المدرسة وتتفرغ للبيع والتجارة علها تجني فلوسا أكثر .

وبالفعل، تركت بيسان المدرسة، وبدأت تعمل منذ الصباح وحتى مغيب الشمس . . . إلى أن كان فصل الشتاء، واشتدت برودة الطقس، فأصيبت بوعكة صحية اضطرتها إلى ملازمة الفراش .

في تلك الليلة، وبينما كانت بيسان في فراشها تصارع ارتفاع درجة حرارتها . . . حلمت بأنها تجلس أمام مائدة كبيرة عليها من أطباق الطعام والحلويات ما تشتهيه النفس . . .

استفاقت بيسان من نومها لتجد نفسها في فراشها ومن حولها إخوتها الجائعون، فقررت أن تترك الفراش وتعود للعمل .

ومع نهاية ذلك اليوم، عادت بيسان للبيت وقد تضاعف مرضها وارتفعت درجة حرارتها، فاندست مباشرة في فراشها ونامت . . .
وبينما هي غارقة في النوم، حلمت بيسان بأنها تسكن في بيت نظيف وكبير له حديقة كبيرة مليئة بالورود والأشجار، وبأنها كانت تلعب مع إخوتها بين الأشجار .
ولكن، وعندما استيقظت وجدت نفسها مرة أخرى في فراشها في تلك الغرفة المعتمة، تستمع إلى أمها التي كانت ترجو صاحبة البيت أن تمهلهم وقتاً إضافياً لدفع أجرة البيت المتأخرة .

لم تستطع بيسان احتمال الموقف، فنهضت من فراشها، وتوجهت نحو صاحبة البيت، وطلبت منها أن تمهلها وقتاً، واعدة إياها بأنها ستعمل على دفع الإيجار بشكل يومي، حيث ستعطي صاحبة البيت جزءاً من الأجرة بعد انتهاء كل يوم عمل .

وهكذا خرجت بيسان مرة أخرى للعمل بينما كانت لا تزال مريضة، والجو ما زال ماطراً وبارداً . . .
وبينما كانت تتجول بين السيارات، شعرت بصداع شديد ففقدت الوعي وسقطت أرضاً . . .

وصل عادل وبقية الرفاق وحاولوا أن يساعدوا بيسان، ولكن دون فائدة، تدخل المارة، واستدعيت سيارة الإسعاف التي نقلت بيسان إلى المشفى .

هناك في المشفى وبينما كانت راقدة، حلمت بيسان بأنها تلبس فستاناً أبيض، وبأن لها أجنحة كبيرة، وبأنها كانت تطير في السماء .
أفاقت بيسان من نومها، فوجدت نفسها في سرير نظيف، ومن حولها ممرضات وممرضون يلبسون الملابس البيضاء، يعطونها الدواء والطعام

ويطمئنون عن صحتها وعن أحوالها دون أن يفارقوها لحظة .

وبينما هي سعيدة فيما بينهم ، وصلت الباحثة الاجتماعية ، التي استأذنت بيسان واستفسرت منها عن أحوالها وأحوال أسرتها .

تحدثت المشرفة الاجتماعية عن أهمية التعليم بالنسبة للأطفال ، وعن أن التعليم هو حق لكل طفل وطفلة تكفله الدولة . . . وقالت بأن التعليم يكفل حياة كريمة ومستقبلاً مشرقاً . . . كما تحدثت عن مخاطر العمل بالنسبة للأطفال ، وعن حق الأطفال في حياة آمنة بعيدة عن مخاطر الشوارع . . . وتحدثت المشرفة أيضاً عن مسؤولية الدولة تجاه الأسر الفقيرة ، وعن أن هذه المسؤولية لا يمكن -بأي حال من الأحوال- أن تكون مسؤولية الأطفال . . . وأخيراً سجلت في دفترها عنوان أسرة بيسان وغادرت . . .

في تلك الليلة ، حلمت بيسان بأنها قد تعافت وعادت إلى بيتها ، فوجدت أسرتها بانتظارها . . . كما وجدت حقيبة مدرسية فيها كتب وكراريس وأقلام وألوان . . .

فتحت بيسان عينيها ، فوجدت نفسها ما زالت في المشفى بين ملائكة الرحمة ، تناولت الطعام والدواء ثم أغمضت عينيها ، فحلمت بأنها تستلم شهادتها من المدرسة وسط تصفيق كل الطالبات والمعلمات . . . وبأنها حملت شهادتها وطارت بها في السماء وحلقت بين النجوم اللامعة . . .

بعد الانتهاء من قراءة القصة ، سألت الطلبة : كم حلماً حلمت بيسان؟ فأجابوا خمسة .

ماذا نسمي هذه الأحلام؟ منهم من قال إنها رغبات ، طموحات ، أمل ضائع تسعى الطفلة بيسان إلى تحقيقه .

التدريب الرابع .....

وزعنا الطلبة إلى مجموعات ، مع توزيع القصص عليهم ، طلبنا من كل مجموعة استخراج القيم والرغبات الموجودة في القصة ، في داخل أشكال قاموا برسمها واختيارها ، مثل : شكل الدائرة ، والمثلث .

عمل الطلبة :

ولتعميق فكرة ما طُلب منهم ، قمت أنا وزميلتي أمل بالنشاط الآتي :

قالت أمل : أحب أن أسهر ليلاً أنا وزميلاتي في إحدى الأماكن الترفيهية ، ولكن أهلي يمانعون مثل هذا السلوك .

قلت لهم : أنا شاب أحب أن أعزف على قيثارتي ليلاً في الشوارع ، وبين الأحياء ، دون أن يمنعني أحد ، ولكن للأسف المجتمع يرفض ذلك .

المجموعة الأولى	
الرغبات	**القيم**
العمل وأنا طفل	المجتمع يرفض عمل الأطفال
التعبير عن رأيي وطموحاتي	وضعي الأسري لا يسمح بذلك
النضال ضد الاحتلال	عائلتي ترفض ذلك لصغر سني

المجموعة الثانية	
الرغبات	**القيم**
أن أستلم الشهادة	الاعتماد على النفس
توفير حياة سعيدة	الثقة بالنفس
بيع المحارم الورقية	الجرأة
تحقيق حياة سعيدة لأسرة	الإيثار

المجموعة الثالثة	
الرغبات	**القيم**
العيش في منزل أفضل	الأمل
توفير حياة كريمة	العزيمة
إسعاد الأسرة	الإصرار ، والمثابرة من أجل من نحب
اللعب	الثقة بالنفس
الإصرار على الحياة	التفاؤل
مقاومة الوضع	الإرادة

بعد استعراض ما استنتجه الطلبة ، طُرح عليهم السؤال الآتي : ماذا تحقق القيم والرغبات في النهاية؟

أجاب الطلبة: الأمل، القوة، الثقة بالنفس، وكلها تصب في تحقيق (حياة هانئة)، يحلم بها كل أطفال فلسطين، وحلم بيسان يعكس حلمنا.

التدريب الخامس.....

بعد ذلك طلبنا من المجموعات كتابة ما يأتي:

1. رسالة من بيسان إلى صديقاتها
2. مقابلة صحافية مع بيسان
3. رسالة إلى وزير الشؤون الاجتماعية

أولاً: رسالة من بيسان إلى صديقاتها

صديقاتي:
إن كابوساً اجتاح حياتي، ولا يزال موجوداً حتى اللحظة الآنية، ظلم أوقع بي ضحية، حياة بائسة أُجبرت عليها، تخليت عن أحلامي كلها، عن طفولتي، طفولة تمنيت أن أعيشها، وها أنا الآن أبيع المحارم الورقية أمام حاجز إسرائيلي، أتمنى ألا تخوضوا التجربة التي أخوضها الآن؛ لما فيها من عذاب نفسي وجسدي أرهقني، وأتعبني، وماذا كانت النتيجة؟! كما ترون أرقد في فراش أبيض مثل المرأة العجوز، أو كجثة هامدة في قبر.

أتمنى أن تردوا على رسالتي هذه لتخفيف آلامي التي أشعر بها، وأتمنى أن أجلس معكن على مقاعد الدراسة؛ كي أكمل تعليمي، وأحصل على شهادة أرفع بها من شأني، وأخدم مجتمعي.

ثانياً: المقابلة الصحافية: «ضحية حلم»

أقف الآن قرب حاجز عسكري بين مدينتي رام الله والقدس، شاهدت فتاة في العاشرة من عمرها، تبيع محارم ورقية، فأجريت حديثاً معها، وسألتها عن سبب عملها في الشارع، وعن ظروفها الأسرية التي تمر فيها.

الفتاة (بيسان): إن وضعي الأسري صعب للغاية، فوالدي غير قادر على العمل، وأمي مصابة بالتهاب رئوي حاد، لذا اخترت العمل لأساعد أسرتي، ولتوفير حاجات أخوتي الضرورية، فأنا أسعى دائماً إلى حياة كريمة، وأرفض أن أعيش عالة على المجتمع.

إن بيسان طفلة مثابرة، لا يعرف اليأس طريقاً لها، فظروف أسرتها جعلتها تترك المدرسة، وتعمل صباح مساء كما الكبار.

ثالثاً: رسالة إلى وزير الشؤون الاجتماعية

إلى حضرة وزير الشؤون الاجتماعية المحترم،
تحية طيبة وبعد،
نرجو من حضرتكم في الوزارة التعامل مع قضايانا التي نعاني منها كأفراد، وجماعات في المجتمع الذي لا ترى فيه شارعاً إلا وترى فيه فقيراً، أو ترى فيه بيتاً بالياً.
يجب أن تتعامل مع مشاكلنا بجدية، فأنت المسؤول الأول، ولكن لا نرى منك سوى الإهمال والنفور.
نرسل لك هذه الرسالة، نحن أطفال كل مدينة وقرية ومخيم يقطن في هذا الوطن الحبيب، لتتعاون مع قضيتنا، وتجد حلولاً لها، فنحن أطفال نسينا طفولتنا، وتحملنا المسؤولية منذ نعومة أظفارنا، وكانت النتيجة، أننا تركنا مدارسنا، لذا نتمنى أن تساعدنا، وتساعد كل طفل وطفلة في هذا المجتمع؛ لأنه واجبك.

اليوم الثالث: المكان الآمن

التدريب الأول.....

الإحماء، وكان الهدف منه تشكيل مشاعر دفء وألفة بين الطلبة والمكان الآمن، فقمت بالنشاط الآتي:

قلت للطلبة: دعونا نجلس في مكان تختارونه أنتم.

جلس الطلبة، فقلت لهم: سنغلق أعيننا، وسنحافظ على تنفسنا، الآن نحن نجلس فوق بساط سيطير بنا إلى مكان آمن نختاره نحن، سنطير... ونطير...، ونموج مع النسيم الدافئ رويداً رويداً...، إننا نطير الآن، ها هو النسيم يداعب وجوهنا، وشعرنا، وملابسنا (وقفة)، ها نحن أوشكنا على الوصول إلى المكان الآمن، سنكتشف المكان، سنميز لونه، رائحته، مساحته، درجة حرارته، الأصوات التي تصدر منه، الناس، الأشجار، الحيوانات... (وقفة).

دعونا الآن نعود إلى مكاننا رويداً رويداً... ها نحن نطير مرة ثانية، والنسيم يداعب وجوهنا، وشعرنا، وملابسنا. (وقفة)، ها نحن وصلنا، ... دعونا نفتح أعيننا.

تحدث الطلبة عن المكان الآمن، وما يمثل لهم.

كانت ملاحظتنا أنا وزميلتي أمل، أن الطلبة اتجهوا إلى المناطق الجبلية، والبحار، والحدائق الواسعة، يتحركون بحرية، دون حواجز، ودون عوائق، ومنهم من اختار بيته، حيث الدفء والحنان. وهذه الأماكن تدل

على ما يفتقده الطفل الفلسطيني، وعلى الحياة التي يأمل أن يحياها.

ولاستكمال مشروع المكان الآمن، قالت زميلتي أمل للطلبة: سننشئ بيتاً للمشردين، والفقراء الذين لا يجدون مأوى لهم، عن طريق منظمة أهلية (غير ربحية)، عُرف عنها العمل بشكل إيجابي في مناطق مختلفة، وتم اختيارنا لبناء بيت للمشردين.

تم شرح مواصفات المنزل، وتوجيه التعليمات للقائمين عليه (الطلبة)، أما المهام التي قام بها الطلبة لإنشاء البيت، فهي:

- اختيار اسم للبيت، فكان (بيت المحبة).
- اختيار شعار للبيت، فكان عبارة عن أيدٍ متشابكة، وعبارة: (معاً رغم كل الظروف).
- اختيار عنوان بريد إلكتروني، فكان: www.ideas for life.org
- تحديد اللائحة الداخلية للبيت، فكانت:

1. يستقبل البيت الأطفال تحت سن الثامنة عشرة، من أية جنسية، أو ديانة.
2. لا مكان للتمييز العنصري في هذا البيت، لا فرق في اللون، أو الديانة، أو الجنس.

أقسام (بيت المحبة):

1. المدرسة: تحتوي على نشاطات لامنهجية، تعليم لغات.
2. مقصف واسع.
3. مختبر حاسوب.
4. مختبر علمي.
5. مكتبة.
6. سكن، دون مشرف داخلي.
7. غرف رياضة.
8. غرف تلفاز (24 ساعة).
9. ساحات واسعة.
10. حضانات.
11. عيادة طبية.
12. طبيب نفسي.
14. سوبر ماركت.

قمت بإخبار الطلبة ما يأتي: "وصلت الآن برقية من طفل إسرائيلي مشرد، يقول فيها: أنا طفل فقدت والديّ بحادث سير، ولا يوجد لي أحد هنا، ولم يعد لي مأوى آوي إليه؛ لأن صاحب البيت طردني بعد وفاة والدي، وأنا أنتظر مجيء عمي من ألمانيا ليأخذني معه، وإلى أن يحين رجوعه، أحب أن أنضم لبيتكم (بيت المحبة)، فهل تقبلون بي ضيفاً".

تباينت آراء الطلبة بين مؤيد، ومعارض، فتم لفت انتباههم إلى اللائحة الداخلية للبيت (بيت المحبة)، والنظر إلى هذه الحالة من ناحية إنسانية.

قُسم الطلبة إلى مجموعات، كل مجموعة وزعت مهام كل قسم من أقسام البيت، من نوم، وترفيه، وتعليم، وصحة.

وُزعت صور لأطفال مشردين على الطلبة (نُزلاء بيت المحبة).

قام الطلبة بإدخال الصور في سجلات خاصة لكل قسم، مع كتابة البيانات الشخصية، واحتياجاتهم.

من السجلات التي قام الطلبة بإنشائها:

الاسم	رولا أحمد سمير أطرش
الجنس	أنثى
العمر	أربع سنوات
الجنسية	لبنانية
مكان الولادة	فلسطين
تاريخ الميلاد	٢٠٠٤/٧/٥
سبب التشريد	اجتياح لقريتها.
الوصايا	توضع في الروضة، قسم البستان.
وصف الحالة	تعاني من جروح في رجلها اليمنى، وضيق في التنفس، كما تعاني من اضطراب نفسي، لذا فهي بحاجة إلى رعاية صحية ونفسية.

سجل آخر:

الاسم	هلا محمد عبد الرحيم سمعان
العمر	٦ سنوات
الجنسية	العراق
مكان الولادة	الكوفة
تاريخ الميلاد	٢٠٠٢/١٢/١٩
اسم الأم	غادة
سبب التشرد	هدم بيتها بسبب زلزال
طريقة النجاة من الحادث	كانت خارج البيت
الحالة الصحية	ضعيفة، تحتاج إلى غذاء جيد
الحالة النفسية	محطمة كلياً

سجل آخر:

الاسم	لبنى محمد ربيع قعش
العمر	ثلاث سنوات
تاريخ الميلاد	٢٠٠٥/٤/٧
اسم الأم	نظمية
الديانة	مسلمة
مكان الولادة	سوريا
سبب التشرد	هدم البيت بسبب بناء طابق دون ترخيص
الحالة المادية	سيئة

عدد أفراد أسرتها	١٢ طفلاً وطفلة
الحالة النفسية	متعبة .

ولأن المكان يؤثر في نفسية الشخصيات بشكل أعمق من تأثيرها على الجسد، لما تمتاز به النفس الإنسانية من إحساس مرهف،[6] قام الطلبة بإنشاء المكان الآمن (بيت المحبة)، مسقطين فيه رغباتهم، وتطلعاتهم، مترجمين حقوقهم كأطفال لهم حق الوجود على هذه الأرض .

قام المساق على محاورة الذات المفردة والجماعية، ما خلق جواً اجتماعياً متفاعلاً، ومتفهماً لحاجيات الطلبة ورغباتهم، عبر مجموعة من الأنشطة المتنوعة، التي تعمل بدورها على تحريك الذات، لاستخراج ما فيها من إبداع . فهذا المساق أخرج الطالب من شرنقته، ووضعه في دائرة من التساؤلات، والاستنتاجات، ليشكل عالماً يخط فيه رغباته، وآماله على الرغم من الصعوبات التي تواجهه على أرض الواقع . وهذا ما جعل إحدى الطالبات (أمل نايف) تصف المساق، قائلة : تعلمت فن الكتابة الإبداعية، وتوسع خيالي، وأصبح كمحيط لا نهاية له .

وقال الطالب (هيثم عواد) : باسمي وباسم المشاركين في هذه الدورة أشكر مركز القطان على كل ما قدمه لنا من فائدة من خلال المعلمتين أمل وباسمة، اللتين عملتا على تعليمنا كيفية الكتابة الإبداعية، عن طريق النشاطات اللامنهجية، وعملتا على إظهار ما لدينا من مواهب .

عندما قرأنا (أنا وأمل) ما كتبه الطلبة، شعرنا بالسعادة كثيراً، وشعرنا بأننا استطعنا التقرب من طلبة لم يسبق لنا التعامل معهم، وبخاصة أنهم طلبوا منا إعطاءهم مثل هذا المساق في العام المقبل، وهذا يعد إنجازاً وفخراً، فالأطفال هم ذخيرة الوطن، ومستودع ثقافته .

وصدق أحد الشعراء حينما قال :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

وأخيراً نشكر أنا وزميلتي (أمل قطاوي) مكتبة بلدية البيرة على تعاونها معنا، كما نشكر الطلبة الذين شاركوا معنا في هذا المساق : رناد، أمل نايف، خلود الحلو، هيثم عواد، معاذ سرحان، فراس عواد، شهد النتشة، ماهر سليم، سلا ماهر، دالية هلال، أماني الحلو، عاصم النتشة، رهام . . . . . ، شريف سليم، رزان . . . . . ، أريج، دارين، هبة نايف، حنين . . . . . ، وعد . . . . . ، رغد سويطات، جنان السلوادي .

باسمة صواف
مدرسة الماجدة وسيلة

الهوامش

[1] د . مصطفى فهمي، ود . محمد القطان (1979) . **علم النفس الاجتماعي**، ط3، القاهرة : مكتبة الخانجي، ص : 65 .

[2] انظر : أوتو كلينبرغ (1967) . **علم النفس الاجتماعي**، ترجمة : حافظ الجمالي، ط1، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة، ص : 91 .

[3] د . حسن محمد هند، د . مصطفى الحبشي (2007) . **النظام القانوني لحقوق الطفل**، مصر : دار الكتب القانونية، ص : 4 .

[4] أ . ك . أوليدوف (1978) . **الوعي الاجتماعي**، ترجمة : ميشيل كيلو، ط1، بيروت : دار ابن خلدون، ص : 101-102 .

[5] د . فيصل عباس (2005) . **العلاج النفسي والطريقة الفرويدية (النظرية، التقنية، الممارسة)**، بيروت : دار المنهل، ص : 361 .

[6] أسماء شاهين (2001) . **جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا**، ط1، الأردن : دار الفارس، ص : 118 .

أطفال مدرسة غزة للموسيقى في حصة تدريبية .